إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الرابعة عشرة ـ العدد الخامس والخمسون ـ خريف ١٤٠٣ش/أيلول ٢٠٢٤م

صص ٥٦ ـ ٣٣

الاستشراق المعكوس فی روایة *شیکاجو* لـعلاء الأسوانی

کمال باغجری*

الملخص

عقب صـــدور کتاب *الاستشـــراق* والتعریف الجدیـــد والمثیر للجـــدل الذی قدّمه «إدوارد ســـعید» لهذا المصطلح، نشأ حقل دراســـی جدید تحت عنوان «دراسات ما بعد الکولونیالیة» أو «دراســـات ما بعد الاســـتعمار». فمـــن منظور هذا المفکّر الفلســـطینی-الأمریکی، إنّ الاستشـــراق هو عبارة عن نوع من التفکیر الغربی فی المنتوج الثقافی الشـــرقی لإقامة الهیمنة وامتلاک السلطة والسیطرة علی الشرق، من خلال خلق ثنائیات أونطولوجیة بین الشـــرق والغرب، بهدف وضع الغرب فی موقع «الأنا المتفوّقة» (صاحب الحضارة) والإنسان الشرقی فی موقع «الآخر المتخلّف»، لیجـــد الغرب بذلک ذریعة للهیمنة علی العالم غیر الغربی تحت عنوان «ضروة إیصال رسالة الحضارة إلی الشـــرق». فی المقابل، ومنذ أواخر القرن العشرین حتی الآن، نشـــأت حرکة معاکســـة فی البلدان الشـــرقیة أطلق علیها المفکّر السوری «صادق جلال العظم» اســـم «الاستشراق المعکوس» یسعی إلی قلب أسس الاستشراق عبر فصل أونطولوجی، شأنه فی ذلک شأن الاستشراق، لیضع الغرب فی موقع الموضوع والآخر. بناء علی ذلک، تهدف هذه الدراســـة إلی الکشف عن مظاهر الاستشراق المعکوس فی روایة شـــ*یکا*جو للکاتب المصری «علاء الأسوانی» عبر قراءة ما بعد کولونیالیة معمّقة للعناصر الســـردیة لها. ومن أهم النتائـــج التی توصّلت إلیها هذه الدراسة هی أن روایة *شیکا*جو مارســـت الاستشراق المعکوس فی شکله الصارخ من خلال وضع المجتمع الأمریکی، بوصفه موضوعاً، فی موقع الآخر غیر المتحضّر؛ وذلک عبر آلیتی «القفزات الســـردیة» (من الحاضر إلی الحقب التاریخیة الســـوداء والمروّعة فی تاریخ الولایات المتحدة) و«التمثیل المشوّه للشخصیات الأمریکیة».

الکلمات الدلیلیة: الاستشراق، الاستشراق المعکوس، الآنا والآخر، روایة *شیکا*جو، علاء الأسوانی.

*. أستاذ مشارک للغة العربیة وآدابها فی مجمّع الفارابی بجامعة طهران، قم، إیران
kbaghjeri@ut.ac.ir

تاریخ الاستلام: ١٤٤٦/١١/٢١ق تاریخ القبول: ١٤٤٧/٠١/٢١ق

المقدّمة

قدّم إدوارد سعيد فى كتابه *الاستشراق* تعريفاً جديداً لهذا المصطلح، ممّا شكّل بداية مجال دراسات جديدة تحت عنوان "ما بعد الاستعمار". ففى فكر هذا المفكر الفلسطينى-الأمريكى، يعدّ الاستشراق نوعاً من الأسلوب الغربى فى إقامة الهيمنة وامتلاك السلطة والسيطرة على الشرق من خلال خلق الثنائيات بين الشرق والغرب، حيث يسعى الغرب إلى وضع نفسه فى مقام "الأنا المتفوقة" ووضع الإنسان الشرقى فى مقام "الآخر الأدنى"، ليجد بذلك ذريعة للهيمنة على الأراضى غير الغربية. لكن فى الوقت نفسه، لقد حذّر إدوارد سعيد نفسه وبعض المنظرين والمفكرين فى مجال ما بعد الاستعمار مثل "غاياترى سبيفاک" من انعكاس أسس الاستشراق فى التفكير الشرقى وتحوّل "الغرب" إلى مفهوم ثابت وأيديولوجى باسم "الآخر"؛ غير أنّ هذه المقاربة الأيديولوجية تجلّت بالفعل (بشكل أو بآخر) فى أواخر القرن العشرين فى كتابات العديد من الكتّاب والمفكرين الشرقيين ممّن حوّلوا "الغرب"، فى أعمالهم الفكرية أو الأدبية وفى إطار نظرة ثابتة أيديولوجية، إلى موطن الفساد والانحلال والانحرافات الجنسية والأخلاقية. يعدّ "جلال صادق العظم" من أهم المفكّرين الذين قاموا بتنظير هذه النظرة الأحادية الأيديولوجية الثابتة وجعلها ضمن مفهوم "الاستشراق المعكوس" فى كتابه *الاستشراق والاستشراق معكوساً*.

لو نظرنا فى الأعمال السردية العربية من منظور الاستشراق المعكوس، لوجدنا كمّا هائلاً من الروايات التى تقدّم نظرة ثابتة أيديولوجية للآخر الغربى يمكن جعلها ضمن مفهوم الاستشراق المعكوس. ومن أبرز الأعمال التى يمكن اعتبارها مثالاً واضحاً على "الاستشراق المعكوس" هى رواية *شيكاجو* للكاتب المصرى علاء الأسوانى. تتضمّن الرواية عدة خطوط سردية متوازية تحكى قصة شخصيات متنوعة فى مدينة شيكاغو الأمريكية. وكما كان المستشرقون الأوائل، من خلال اختلاق مفهوم ثابت وأيديولوجى باسم "الشرق" يعتبرون البلدان الشرقية موطناً للعنف، والوحشية، والفوضى، والشهوانية، والكسل وغيرها من الصفات المذمومة، فإنّ كاتب رواية *شيكاجو* ومن خلال وضع مفهوم ثابت باسم "الغرب" قد صوّر الحضارة الغربية على أنها غارقة فى الأزمات

الفکریة والأخلاقیة والسلوکیة.

أسئلة البحث

بناء علی ذلک، یســـعی البحث الحالی إلی تحلیل مظاهر الاستشراق المعکوس فی روایة *شیکاجو* والآلیات التی یقوم الکاتب عبرها بتقدیم نموذج فکری قائم علی التمییز الإبســـتمولوجی والأنطولوجی بین الشرق والغرب. والسؤال الرئیسی لهذا البحث هو:

- کیف تجلّی الاستشراق المعکوس فی روایة *شیکاجو* وما الآلیات السردیة التی توظّفها الروایة لوضع المجتمع الأمریکی والحضارة الغربیة فی مکانة "الآخر"؟

خلفیة البحث

حتی الآن، لم یجرَ أی بحث، ســـواء کان مقالة أو رسالة جامعیة، حول الاستشراق المعکوس فی روایة *شـــیکاجو*. ومع ذلک، أُجریت العدید من الدراســـات حول هذه الروایة یمکن اعتبار بعضها کخلفیة للبحث الحالی:

- مقال «استعمار نوین و سیاست دیگرســـتیزی: هویت «دشمن دوست نما» در رمانهای جمهوریت، حقیقتی دروغین و شیکاگو اثر علا الاسوانی » (الاستعمار الجدید وسیاسة معاداة الآخر: هویة نیران صدیقة فی روایتی *جمهوریة کأنّ* و *شیکاجو* لعلاء الأسوانی») لفاطمة برناکی وعلی سلامی (۲۰۲۳): تتناول هذه المقالة دراسة هویة العرب والمسلمین فی مواجهة الهویة الأمریکیة فی روایتی *جمهوریة کأنّ وشیکاجو* لعلاء الأسوانی؛ وذلک استناداً إلی النظریة السیاسیة لـ"شانتال موفه" حول الدیمقراطیة التعددیة.
- مقال «سازگاری فرهنگی مهاجران در رمان شیکاگو، اثر علاء الأسوانی؛ بر اساس نظریه فرهنگ‌پذیری جان بری» (التکیف الثقافی للمهاجرین فی روایة *شیکاجو* لعلاء الأسوانی؛ استناداً إلی نظریة التثاقف لجون بیری) تألیف نسرین کاظم زاده وآخریـــن (۲۰۲۱). توصل الکتّاب، من خلال تطبیق نظریة "جون بیری" علی روایة "شـــیکاجو" إلی أن الأبطـــال ذوی الخلفیات والاتجاهات المختلفة یتّبعون استراتیجیات متعددة مثل الانفصال، والمماهاة والاندماج من

أجل التكيف مع البيئة الجديدة.

- مقال «سیمای دیگری در رمان *ثریا در اغما* اثر اسماعیل فصیح و رمان *شیکاگو* اثر علاء الاسوانی» (صورة الآخر فی روایة *ثریا فی الغیبوبة* لإسماعیل فصیح وروایة *شیکاجو* لعلاء الأسوانی) لفریدة أمیری دهناوی وآخرین (٢٠١٥): یتناول هذا المقال کیفیة مواجهة الشخصیات الشرقیة فی الروایتین المذکورتین للمجتمع الغربی وما یتضّمن من الحریات والدیموقراطیة. وبحسب رأی الکتّاب، فإن العودة إلی الذات هی الحل الذی تقدمه الروایتان لمشکلة المواجهة مع الغرب.
- مقال «ثنائیة الأنا والآخر فی روایة شیکاجو» لمحمود حسن محمود (٢٠٢٣). إن المقال، بناء علی المنهج التفکیکی، یتناول قضایا عدة مثل التاریخ والحاضر والمکان والحضارة بوصفها محددات أنتجت خطاب التفکیک والأزمة للأنا العربیة.

أولاً: الاستشراق المعکوس

تُعدّ الدراسات ما بعد الاستعماریة حقلاً دراسیاً ومعرفیاً حدیث العهد نسبیاً یرکّز علی تحلیل مکوّنات الهیمنة. غیر أنّها، وبدلاً من التأکید علی الاحتلال العسکری والسیاسی للأراضی الأجنبیة من قبل المستعمرین، یسلّط الضوء علی هیمنتهم الثقافیة والإعلامیة. وغالباً ما یعتبر کتاب *الاستشراق* لإدوارد سعید نقطة البدایة لهذا الحقل المعرفی. یقدّم إدوارد سعید فی هذا الکتاب تعریفاً جدیداً للاستشراق یختلف عن الاستشراق الأکادیمی (مجال دراسة بلدان الشرق). ففی هذا التعریف، الاستشراق هو نوع من أسلوب التفکیر یقوم علی تمییز أنطولوجی ومعرفی بین الشرق والغرب. وعلیه، فإنّ عدداً کبیراً من الکتّاب، من بینهم شعراء وروائیون وفلاسفة ومنظّرون سیاسیون واقتصادیون وغیرهم، قد اعترفوا بهذا الاختلاف الجوهری بین الشرق والغرب وجعلوه نقطة انطلاق لنظریاتهم وملحماتهم وقصصهم ووصفهم الاجتماعی ومروریاتهم السیاسیة حول الشرق والشعوب الشرقیة وعاداتهم وتقالیدهم وأفکارهم ومصائرهم. (سعید،

١٩٩٥: ٥٠ – ٥٣) ومن خلال دراسة كتابات الباحثين والأدباء ورحّالة وغيرهم، يظهر سـعيد أنّ الأوروبيين، بعد عصر التنوير، اسـتحوذوا على الشرق معرفياً (فى كتاباتهم وقصصهم) قبل أن يسيطروا عليه عسكرياً؛ ويرى أن خطاب الاستشراق يصوّر الشرق مبدئياً على أنه "الآخر" غير المتحضّر المتخلّف، ليبرّر بذلک ومن خلال خلق أسـطورة "التمدين" الاحتلالَ العسكرى والسيطرة على الشرق.

لقد واجهت هذه الرؤية التى تبنّاها إدوارد سعيد حول أسس الاستشراق العديد من الانتقادات. ففى هذا السياق، قام المفكّر السورى "صادق جلال العظم" (١٩٣٤-٢٠١٦) فى كتابه المعنون *الاستشراق والاستشراق معكوساً* بالتشكيک فى نظرية إدوارد سعيد. وبحسـب جلال العظم، فإن إدوارد سعيد فى كتابه الاستشراق وقع فى خطأ معرفى هو نفسـه ينتقده. وبعبارة أخرى، أصبح مفهوم الاستشراق لدى إدوارد سعيد مفهوماً ثابتاً ويقينياً يسـمّيه العظم "ميتافيزيقا الاستشـراق"، إذ يعتقد أن ظاهرة الاستشراق تقوم على العودة من الباب الخلفى، إلى أسـطورة الطبائع الثابتة بخصائصها الجوهرية التى لا تحول ولا تزول؛ وتنحصر فى مقولة مطلقة: الشرق شرق والغرب غرب، ولكلّ منهما طبيعته الجوهرية المختلفة وخصائصه المميزة. (جلال العظم، ١٩٨١: ٤٤-٤٧) والمفارقة التى يوردها العظم هنا «أنّ أعظم ناقد للاستشـراق الغربى أعاد تكريس هذا الفصل الأونطولوجى ولكن بصورة مقلوبة، عندما قلب نقطة التمركز لتصبح حول الشـرق بدلاً من الغرب. وقد أطلق العظم على هذه الرؤية الاستشـراقية "ميتافيزيقا الاستشراق".» (سلامى، ٢٠١٦: ١٦) إنّ ميتافيزيقا الاستشراق، ببيان آخر، تعنى تحويل واقعة تاريخية متحولة إلى حقيقة أنطولوجية ثابتة لا تتغير؛ أو لنقلْ إنّها نوع من الافتراض المسبق أو الخطاب السائد الذى يهيمن على عقلية الكاتب أو الباحث ليصف بذلک موضوعَ أدبه أو بحثه. وهكذا، يتخذ الكاتب أو الباحث حادثة تاريخية أو مشـكلة اجتماعية أساساً لتفسير وضع تاريخى أو اجتماعى، متجاهلاً التعقيدات الاجتماعية وصيرورة التاريخ. (جلال العظم، ١٩٨١: ٥٧ – ٦٥)

يمكن ملاحظة مظاهر الاستشراق المعكوس فى أعمال متنوعة، سواء كانت فكرية أو أدبية. ومن الواضح أن جنس الرواية، بسبب طبيعته اللغوية القريبة من التجربة اليومية،

هـــو المرآة الأكثر وضوحاً لعكس هذه العقلية الأيديولوجية تجاه الغرب. ولتوضيح هذه العقلية، من الأفضل أن نستعين بمثال واقعي. فقد انتقد إدوارد سعيد في كتابه *الاستشراق* النظرة المتحيزة والجندرية للكاتب الفرنسي "غوستاف فلوبير" في كتاباته، ولاسيما في وصفه امرأة مصرية تُدعى "كشك هانم" قائلاً: «هذه المرأة لم تتحدّث مطلقاً عن نفسها، ولم تصوّر قط مشـــاعرها أو تعبّر عـــن وجودها أو تاريخها، بل إنّـــه هو الذي تحدّث باسمها وصوّرها. وكان هو أجنبياً يتمتّع بثراء نســـبي، وكان رجلاً، وهذه جميعاً حقائق تاريخية مكّنته من فرض ســـيطرته ومكّنته لا من امتلاك "كشـــك هانم" جسدياً فقط، بل أيضا التحدّث باسمها، واطّلاع قرّائه على جوانب تمثيلها للمرأة الشـــرقية.» (سعيد، ١٩٩٥: ٤٩) في مقابل هذه الرؤية الاستشـــراقية، يمكننا ملاحظة نفس النظرة الموجهة والجندرية، ولكن بشكل معاكس، في العديد من الروايات العربية التي تتناول موضوع الرحلة إلى الغرب. فعلى ســـبيل المثال، في رواية جســـر *الشيطان* لعبد الحميد جودة السحار، نجد شخصية "آني"، وهي بائعة هوى غارقة في الانحطاط والرذيلة (تماماً مثل "كشـــك هانم")، تتأثّر بروحانية شخصية بطل الرواية "علي" (وهو شاب مصري ملتزم بالمبادئ الأخلاقية): «وراحت تؤكد لنفســـها أن ذلك الرجل القادم من الشرق يختلف كلّ الاختلاف عن "ماكس" وعن كل الرجال الذين دخلوا حياتها. وطالما خيل إليها أنّه مـــن عصر غير هذا العصر... وحديثه غريب تفوح منه رائحة القدم، ولكنها في قرارتها ترتاح إليه... .» (جودة الســـحّار، ١٩٩١: ١٣٢ و١٣٣) ففي هذه القصة، يتسلّل الراوي إلى ذهن هذه المرأة الألمانية ويعبّر عن مشـــاعرها تجاه شاب مصري مسلم. فمن جهة، تمثّل امرأة عاهرة رمزًا لأوروبا التي –وفقًا لحبكة القصة– غارقة في مستنقع الانحطاط والرذيلة الأخلاقية وإشباع الغرائز الجنســـية بشكل متزايد؛ ومن جهة أخرى، يصرخ الراوي، من خلال التغلغل في أعماق شـــخصية "آنـــي" الخفية، بتفوّق روحانية الرجل الشـــرقي (علي) على مادية الرجال الأوروبيين (ماكـــس وآخرين). فإنّ هذه الصورة النمطية لبائعة هوى غربية محترفة، التي تتأثر بروحانية الشرق وتصمّم على تغيير نهجها، هي صورة منحازة أو، لنقل بشكل أدقّ، صورة معكوسة للاستشراق، إذ تقوم على فصل أونطولوجي بين الغرب المادي والشرق الروحاني. يمكن رصد مثل هذه الرؤية المنحازة

فی العدید من الأعمال الفکریة أو الأدبیة العربیة. وسنحاول فی ما یلی وصف وتحلیل مظاهر الاستشراق المعکوس فی روایة *شیکاجو* لعلاء الأسوانی.

ثانیاً: نظرة علی روایة *شیکاجو*

یمکن اعتبار روایة *شیکاجو* "روایة شخصیات"، إذ یرکّز فیها علی تقدیم الصفات والتحوّلات الشخصیة أکثر من الأحداث والعناصر القصصیة الأخری، بحیث «لا ینظر إلی شخصیات الروایة کجزء من الحبکة، بل علی العکس، فهی تتمتّع بوجود مستقلّ وتکون أحداث القصة تابعة لها وفی خدمتها.» (میرصادقی ومیرصادقی، ۱۳۷۷ش: ۱٤۲) إنّ تعدد الأصوات وتنوع السردیات المتوازیة فی روایة *شیکاجو*، والتی بالطبع یصاحبها انقطاع فی التسلسل الزمنی الخطی، جعل من المستحیل تقریباً تلخیصها فی عدة أسطر. ینصبّ ترکیز هذه الروایة أکثر علی صفات وخصال الشخصیات ولیس علی الفعل السردی. وجود اثنی عشر شخصیة رئیسیة (جمیعهم تقریباً یحظون بحصة متساویة من حجم الروایة) إلی جانب ثمانی شخصیات ثانویة، هو أفضل دلیل لإثبات هذا الادعاء. والحلقة التی تربط السردیات المتعددة لهذه الروایة هی مدینة شیکاغو الأمریکیة وتحدیداً قسم هیستولوجیا (علم الأنسجة) فی جامعة إلینوی حیث تدور أحداث الروایة حول مجموعة من الطلاب المصریین المبتعثین الذین یتفاعلون مع بیئة جدیدة وثقافة مختلفة، وتتشابک حیاتهم مع حیاة أساتذتهم الأمریکیین، وتنشأ صراعات وتوترات بین العالمین. من خلال هذه الصراعات، یواجه الطلاب تحدیات تتعلق بالهویة والانتماء والاغتراب.

الاستشراق المعکوس فی روایة *شیکاجو*

أولاً: إنتاج الآخر من خلال القفزات السردیة

کما مرّ بنا، إنّ خطاب الاستشراق، وبالترکیز علی خلق الثنائیات الأونطولوجیة (المتحضّر/الوحشی، الفنّ الغربی/الفلکلور الشرقی، التاریخ الغربی/الأسطورة الشرقیة و...إلخ) وتضخیم أسطورة الشرق الغرائبیة، حوّل الشرق إلی موطن للعنف، والوحشیة، والفوضی، والشهوانیة، والکسل وغیرها من الصفات المذمومة. علی هذا، یمکن اعتبار

رواية شيكاجو مرآة كاملة للاستشراق المعكوس؛ إذ أنّها ومن خلال وضع مفهوم ثابت وأيديولوجي للغرب، تسعى إلى تصوير المجتمع الأمريكي كآخر.

الآلية الرئيسية للرواية في تقديم هذه الصورة النمطية هي التماهي بين الولايات المتحدة الأمريكية في القرن الحادي والعشرين والمستعمرين الأوروبيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر (بريطانيا وفرنسا) إلى جانب القفزات السردية (العنوان، والغلاف، والبداية، والزمان والمكان) بين اليوم والفترات المظلمة والعنيفة من تاريخ أمريكا. وبهذا، فإنّ رواية شيكاجو تشبه بندول الساعة الذي يتأرجح باستمرار من هنا/الآن (مدينة شيكاجو في بدايات القرن ٢١) إلى هناك/الماضي (عصر الاستعمار الكلاسيكي والفترات السوداء والمروعة من تاريخ الولايات المتحدة) لتصوير المجتمع الأمريكي الحالي كمجتمع منهار أخلاقياً. وبعبارة أخرى، تقدّم الرواية صورة ساكنة وأيديولوجية عن الولايات المتحدة الأمريكية تتجلى في مفاهيم نمطية مثل الهيمنة، والشهوة، والانحلال، وتفكك الأسرة، والتمييز، والعنصرية، والاستهلاكية المفرطة، والعنف، وكراهية الآخر (الإسلاموفوبيا، والنظرة المعادية للعرب والشرقيين) وغيرها. يمكن رصد هذا التماهي في العديد من العناصر السردية بما في ذلك العنوان، وبداية القصة، والزمان، والمكان.

عنوان وغلاف الرواية

لقد أصبح للعنوان في السرد المعاصر دلالات تضارع النص، إذ له بنيته الإنتاجية التوليدية. والعنوان حاصل تفاعل العناصر العلامية الشفرية والمكونات الدلالية. إنّه يمثّل أولى محطات الصراع مع القارئ. وبالتالي فإنّ العنوان كنص مختزل يقيم نوعاً من التناص مع نص الرواية. (محمد الأمين الطلبة، ٢٠٠٨: ١٣٥) وبعبارة أخرى، فإنّ عنوان النص السردي يعدّ، قبل عملية القراءة، بنية مستقلة تتفاعل مع الخلفية الذهنية للقارئ؛ بينما يتحوّل، بعد عملية القراءة، إلى نظام تناصي يؤول ويفسر استناداً إلى حبكة القصة.

عنوان هذه الرواية شيكاجو (شيكاغو) هو اسم واحدة من أكبر المدن الأمريكية.

لذلك، عند أول مواجهة مع العتبة النصية للرواية (مرحلة ما قبل القراءة) نواجه حضور الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها قوة مهيمنة سـلطوية. وهذا الحضور الأمريكى فى العنوان هو أحد الآليات المهمة التى استخدمها الروائيون العرب فى العقود الماضية لتضخيم حضور الولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط (بدلاً من المستعمرين السـابقين) وجذب انتباه القارئ إلى الدور المحورى لهذه القوة المهيمنة فى العلاقات ما بعد الاستعمارية. وفى روايات مثل *نيويورك ٨٠* لـيوسف إدريس، و *أمريكانلى* (على وزن عثمانلى) لـصنع الله إبراهيم، و*بروكلين هايتس* لـميرال طحطاوى، و*أميركا* لـربيع جابر وغيرها نجد الحضور الفعال للولايات المتحدة والمدن الأمريكية فى العنوان.

أمّا إذا ما رجعنـا إلى النص الأصلى للرواية بهدف تحليل النسـيج التناصى بين العنوان والنص، سـنلاحظ أن مدينة شـيكاغو فى الرواية مجاز مرسل (بعلاقة جزئية) عن الولايات المتحدة الأمريكية. فقد ذُكرت مدينة شيكاغو (الجزء) وأُريد بها الولايات المتحدة الأمريكية (الكل). يتوافق هذا المجاز المرسل بوضوح مع تصميم غلاف الرواية حيث يظهر صورة غامضة لأبراج وناطحات سحاب شاهقة تقع فى خلفية سوداء:

وهى صورة لا تدلّ على مدينة شيكاغو فحسب، بل على الولايات المتحدة الأمريكية كلها ولاسـيما المدن الكبرى منها مثل نيويورك ولوس أنجلـوس. ففى نص الرواية غالباً ما تُعدّ مدينة شـيكاغو مجازاً عن الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه رغم أن جميع الحبكات السـت تجرى فى هذه المدينة، إلا أن الحضارة الأمريكية (الثقافة، والتاريخ، والسياسة الداخلية والخارجية، والاقتصاد الرأسمالى، وغيرها) هى التى توضع موضع النقد. ومن المثير للاهتمام أن هذا النقد اللاذع غالباً ما يبدأ من مدينة شيكاغو (وخاصة جامعة إلينوى) ليعمم بعد ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية بأكملها.

لكـــن عنوان "شـــيكاغو" وصورتها كتصميم على الغـــلاف يحملان دلالات أخرى غالباً ما ترتبط بالســـمات الرئيسية لهذه المدينة. فكما نعلم، فإن مدينة شيكاغو بسبب ماضيها المظلم فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين (حيث كانت مركزاً لعصابات المافيا والهاربين من القانون مثل "آل كابونـــى") كانت دائماً فى الأذهان رمزاً للعنف، وتجاوز القانون، والرعب، والقتل، والابتزاز، وكثرة الأسلحة النارية وغيرها. وفى نصّ رواية شـــيكاجو، يذكّر القارئ مراراً وتكراراً بتاريخ هذه المدينة المظلم وتطبيقه على المدن الأمريكية الأخرى اليوم: «فى العشرينيات والثلاثينيات كانت المافيا نشطة هنا، أيام "آل كابونى". أما الآن فالعصابات فى شـــيكاجو كمثلهـــا فى أية مدينة أخرى... على الأقل، هنا المناطق الخطرة معروفة، أما فى نيويورک فالخطر شـــامل. قد يهاجمک مســـلحون فى أى مكان... .» (الأســـوانى، ٢٠٠٨: ٥٧ – ٥٨) فى الواقع، فى عنوان وغلاف رواية شيكاجو، نشهد نوعاً من التوازى بين الصورة النمطية لمدينة شيكاغو فى أوائل القرن العشـــرين (مركز العنف، والرعب، والقتل، و...) والولايات المتحدة اليوم. بعبارة أخرى، تُسقط الصورة التاريخية لمدينة شيكاغو، بوصفها صورة ثابتة وغير قابلة للتغيير، على صورة أمريكا الحالية؛ وذلک ما يذكّرنا بأسطورة الطبائع الثابتة (فى فكر جلال العظم) بخصائصها الجوهرية التى لا تحول ولا تزول.

بداية القصة

تشـــكّل بداية الرواية مكاناً استراتيجياً فى النص يحدّد طريقة القراءة ويوازن بين مهمتين متنافســـين: المعرفة والتشـــويق. فالتزام الروائى ببناء عالم الرواية يدفعه إلى تقديم المعلومات والتفســـير والوصف، والتزام الروائى يجذب القارئ إلى عالم الحكاية وتوريطه فى لعبتها يدفعه إلى إخفاء بعض المعلومات والتقليل من التفســـير والوصف. (زيتونـــى، ٢٠٠٢: ٣٢ و٣٣) بناء على هذا، قد نقل علاء الأســـوانى، من خلال تقديم بداية خارجة عـــن المألوف، هاتين الوظيفتين (المعرفة والتشـــويق) إلى قارئه بأفضل صورة ممكنة. ولتحقيق ذلک اســـتخدم تقنية سردية تُعرف بـ"تضمين انعكاسى" ألا وهو «أسلوب فنّى يشبه أســـلوب التضمين، ويتميز منه فى كون الجزء المضمّن يتجلى مرآة

داخلية تعكس الإطار الذى يحتويه، فإذا بالأثر الفنّى كلّه يمســـى منعكساً فى جزء من أجزائـــه.» (القاضى وآخرون، ٢٠١٠: ٩٧) ففى رواية شـــيكاجو، تجلت هذه الوظيفة السردية من خلال ملخّص لتاريخ مدينة شيكاغو:

«قد لا يعرف الكثيرون أن "شـــيكاجو" ليســـت كلمة إنجليزية، وإنما تنتمى إلى لغة الألجنوكى، وهى إحدى لغات عديدة كان الهنود الحمر يتحدثون بها. معنى شيكاجو فى تلك اللغة "الرائحة القوية"، والســـبب فى هذه التسمية أن المكان الذى تشغله المدينة اليوم، كان فى الأصل حقولا شاسعة خصصها الهنود الحمر لزراعة البصل... ظلّ الهنود الحمر لعشرات السنين يعيشون فى شيكاجو... ويمارسون حياتهم بسلام... حتى كان عام ١٦٧٣ عندما وصل إلى المنطقـــة رحالة وصانع خرائط يدعى "لويس جولييه"، يرافقه راهب فرنســـى... وسرعان ما توافد عليها آلاف المســـتعمرين كما يتدافع النمل على إناء العســـل... وخلال المائة عام التالية: شنّ المستعمرون البيض حروب إبادة مروعة، قتلوا خلالها ما بين ٥ و١٢ مليون نفس من الهنود الحمر... فالمستعمرون البيض، الذين قتوا الهنود الحمر وســـلبوا أراضيهم ونهبوا ثرواتهم من الذهب، كانوا فى نفس الوقت مســـيحيين متدينين للغاية... فقد ذهب كثير من المستعمرين البيض إلى أن الهنود الحمر، بالرغم من كونهم ضمن مخلوقات الله على نحو ما، فإنهم لم يخلقوا بروح المســـيح، وإنما خلقوا بروح أخرى ناقصة شـــريرة... وأكّد آخرون أن الهنـــود الحمر مثل الحيوانات، مخلوقات بلا روح ولا ضمير.» (الأسوانى، ٢٠٠٨: ٧و٨)

كما هو واضح فى النص أعلاه، تبدأ حركة الســـرد فى بداية الرواية، شـــأنها شأن العنوان وتصميم الغلاف، من مدينة شيكاغو، ثمّ تمتد تدريجياً لتشمل جميع أنحاء الولايات المتحدة. وتســـتمر هذه الحركة من الجزء إلى الكل طوال القصة، وتشمل أجزاء كثيرة من سرد شـــيكاجو. بعبارة أخرى، يعدّ المشـــهد الافتتاحى للرواية بمثابة مرآة تعكس الســـرديات الستة للرواية. ولهذا السبب، يتكرر ضمنياً طوال الرواية مشهد قمع وإبادة الســـكان الأصليين لأمريكا وحضارتهم على يد المســـتعمرين البيض، ولكن هذه المرة بأســـاليب حديثة ومعاصرة. كما يتم قمع الأمريكيين من أصول أفريقية والتعامل معهم بعنصرية (انظر: نفس المصدر: ١٨٨، ١٩٢، ١٩٧، ٢٦٩، ٣٧٤ – ٣٧٩)، وقمع المخالفين

للنظام الرأسمالي وسياسات أمريكا الخارجية في شيكاغو (انظر: نفس المصدر: ١٥٧، ١٥٨، ١٨٢ – ١٨٥، ٢٠٠) وذوبان القيم والأنماط السلوكية الشرقية (وخاصة المصرية) في بوتقة العولمة (خلال سرديات طارق حسيب وشيماء).

بناء على ما ذكر، فإنّ هذا الجزء من بداية الرواية، الذي يعكس ملخّصاً للخطاب السردي للرواية عبر "التضمين الانعكاسي" يظهر بوضوح عناصر الاستشراق المعكوس حيث يقدّم تصويراً مرعباً للغاية عن المجازر التي ارتكبها المستعمرون البيض بحقّ السكان الأصليين، ممّا يجعل سكّان مدينة شيكاغو، وبنوع ما الولايات المتحدة كلّها، في مقام "الآخرين" الذين يحملون إرث الوحشية، والنهب، والاعتداءات التي ارتكبها أسلافهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر. والكاتب من خلال إشارة موجزة إلى تاريخ أمريكا، وخاصة المذابح الواسعة التي تعرّض لها السكان الأصليون (الهنود الحمر) من قبل المستعمرين البيض الذين منحوا أنفسهم الشرعية من خلال أيديولوجية المسيحية، يعتبر أن أشكال الإمبريالية الحديثة (مثل حروب أمريكا في فيتنام والعراق، وظاهرة العولمة، والنظام الرأسمالي، ودعم أمريكا للأنظمة القمعية في الشرق الأوسط، وغيرها...) ليست إلا أساليب حديثة وملونة لذلك الاستعمار العاري والمرعب. يذكر أنّ الاستشراق المعكوس هنا لا يعني نقد المجتمع الأمريكي وفق قواعد موضوعية، بل –وكما يقول صادق جلال العظم– المحاولة لإنتاج الآخر كنقيض للأنا وتقديم صورة ميتافيزيقية عن الآخر باختزاله إلى طبائع ثابتة وليس إلى صيرورة تاريخية متبدّلة.

الزمان والمكان

بالإضافة إلى بداية الرواية، التي تُعد بلا شك العنصر الأبرز في إنتاج الآخر في رواية *شيكاجو*، فإن عنصري الزمان والمكان أيضاً لهما دور بارز في هذه العملية. إنّ السرديات المتعددة والمتوازية في رواية *شيكاجو*، إلى جانب استفادة الكاتب من تقنية "المونتاج" السينمائية، والتي أدّت من خلال عملية القطع والدمج إلى انقطاع الزمان والمكان في القصة، جعلت التأرجح بين الماضي (الحقب التاريخية المظلمة والمروعة في تاريخ أمريكا) والحاضر (القرن الواحد والعشرين) السمة الرئيسية للرواية. وعليه،

نرى أن تقنية الاســـترجاع (الفلاش باک) يلعب دوراً محورياً فى سرديات شيكاجو، إذ إنّ هذه الســـرديات تتقدّم أساساً من خلال القفزات الزمانية والمكانية بين "هنا/الآن" و"هناک/الماضى". فعلى ســـبيل المثال، فى بداية القصة وبعد ذكر تاريخ مدينة شيكاغو المروعة، الذى تمّ ذكر أجزاء منه ســـابقاً، يواجه القارئ قفزة زمنية ومكانية إلى العصر الحالى وســـكن الطلاب فى إلينوى: «مِن أين لشيماء محمدى أن تعرف كلّ هذا التاريخ وقد قضت حياتها كلّها فى طنطا، لم تغادرها إلا مرات نادرة... جاءت شيماء من طنطا إلى شيكاجو هكذا... مرة واحدة، دون اســـتعداد أو تمهيد، كمن قفز فى البحر بملابسه الكاملة وهو لا يعرف السباحة.» (الأسوانى، ٢٠٠٨: ١٣) كذلک فى سرد قصة "رأفت ثابت" نرى أنّه قبل أن يذهب لزيارة ابنته (ســـارا) فى حى "أوكلاند" (حى السود) فى شـــيكاغو، يواجه القارئ قفزة زمنية ومكانية إلى عصر العبودية فى الولايات المتحدة والظلم والمعاناة الذى لحق بالأمريكيين من أصول أفريقية جرّاء هجرتهم إلى شيكاغو: «منذ أنشئت شـــيكاجو، لم تنقطع هجرة الزنوج إليها، مئات الألوف هربوا من العبودية فى ولايات الجنوب، جاءوا إلى شـــيكاجو يدفعهم حلـــم أن يكونوا مواطنين أحرارا لهم كيان وكرامـــة. التحقوا بالعمل فى المصانع، وعملت زوجاتهم خادمات فى البيوت وجليسات أطفال، وسرعان ما اكتشفوا أنّهم استبدلوا قيود العبيد الحديدية بقيود أخرى غير مرئية لا تقل قسوة... .» (نفس المصدر: ٢١٧)

والنقطة الجديرة بالملاحظة التى تهمنا فى تحليل دلالات الاستشـــراق المعكوس فى الرواية، هى أن الكاتب، عبر وضع أســـس ثابتة للحالة الاجتماعية فى الغرب، لا يرى أى تحوّل وتطوّر فى تاريخ شيكاغو وتحديداً فى ظروف حياة ذوى الأصول الإفريقية فى الولايات المتحدة الأمريكية. حتى نضالات "مارتن لوثر كينغ" تُعتبر عديمة الجدوى، حيث يوصَف الوضع الحالى فى شيكاغو بأنه يكاد يشبه حالة العبودية فى القرن التاسع عشـــر: «كان "مارتن لوثر كينج" يريد أن يبعث برسالة حبّ وإخاء مسيحية، ويعلن فى نفس الوقت أن الأوضاع العنصرية لم تعـــد تُحتمل، لكن النتيجة كانت عنيفة ومحبطة... وهكذا، على مدى تاريخ شيكاجو، ظلّ الحاجز العنصرى بمثابة صخرة الحقيقة الصلبة، لا يمكن تجاهلها أو تفاديها... .» (نفس المصدر: ٢١٨ و ٢١٩)

ومـــن الجدير بالذكر أن العديـــد من هذه القفزات الزمنيـــة والمكانية هى أحداث تاريخية موثقة، تنقل القارئ فجأة من زمن ومكان الســـرد (أمريكا بعد أحداث الحادى عشر من ســـبتمبر) إلى قلب عصر الاســـتعمار. وبالإضافة إلى تاريخ مذابح السكان الأصليين فى أمريكا (فى القرنين الســـابع عشر والثامن عشر) الذى أشرنا إليه سابقاً، فإن تاريخ السود فى مدينة شيكاغو (منذ هجرتهم إلى هذه المدينة وتصاعد الصراعات والمواجهات العنصرية فى عام ١٩١٩، وصولاً إلى الاحتجاجات السلمية للسود بقيادة "مارتـــن لوثر كينغ" عام ١٩٦٦)، وقمع التظاهرات المناهضة للرأسمالية فى ســـتينيات القرن الماضى، وردود الفعل العنصرية بعد أحداث الحادى عشـــر من سبتمبر، كلّها من الإشـــارات التاريخية الأخرى المذكورة فى رواية شيكاجو، والتى يتمّ سردها للقارئ باستمرار فى عملية مماهاة بين الحاضر والماضى.

ثانياً: التمثيل المشوّه للشخصيات الروائية

إنّ واحداً من أهمّ المصطلحات النقدية فى حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية هو مصطلح "التمثيلية" (Representation) الذى يعنى «الكيفية التى تتجلى فيها الأحداث فى الخطابات بكل أشكالها.» (فرج، ٢٠١٨: موقع "الفيصل") وقد استعار إدوارد سعيد هذا المصطلح من ميشيل فوكو و قام بتطويره وفقاً لرؤيته. وقد طرح فوكو، فى مناقشته لمفهوم "المعرفة/الســـلطة"، فكرة أن المعرفة تُنتَج دائماً من قبل السلطة، ولذلك ليست هناك معرفة بريئة، لأن الســـلطة دائماً تمثّل المعرفة وفقاً لمصالحها الخاصة. فى الواقع، تعمل الســـلطة كمرآة تعكس المعرفة حسب تقديرها الخاص. وقد أدخل إدوارد سعيد مصطلح "التمثيلية" إلى الدراســـات ما بعد الكولونيالية. وبحســـب سعيد، فإن أساس الاستشراق (بوصفه ســـلطة) كان دائماً يمثّل الشرق وفق رؤيته الأيديولوجية المنحازة وباعتباره الآخر الأدنى.

بناء على هذا، فإنّنا فى رواية شـــيكاجو، أمام تمثيلية معاكسة للشخصيات السردية تسعى إلى إنتاج الآخر الغربى. فكما أشرنا سابقاً، فإنّ مدينة شيكاغو فى هذه الرواية تمثـــل كلّ أمريكا؛ ومن هنا، فإن صورة مجتمع شـــيكاغو هى صورة المجتمع الأمريكى

ككل، أو حتى على مستوى أوسع، صورة الحضارة الغربية بأسرها. غير أنّ المجتمع الأمريكى الذى صوّره الأسوانى فى هذه الرواية هو مجتمع منحط غارق فى الأزمات والتحديات التى أغرقت المواطنين الأمريكيين فى مستنقع من المشاكل والمعضلات. فالمثقفون الأمريكيون هم إما عنصريون متعصبون أو منبوذون يعيشون فى عزلة وانطواء بسبب معارضتهم للنظام الرأسمالى. أما عامة الناس، فهم يتخبّطون فى مستنقع من الفقر والبطالة والإدمان والدعارة والمثلية الجنسية وتفكك الأسرة وغيرها من المشاكل. والنقطة الجديرة بالملاحظة هى أن الشخصيات غير الأمريكية أيضاً، بسبب وجودهم فى المجتمع الأمريكى واطلاعهم على القيم الغربية، قد وقعوا فى نفس الأزمات، وأصبحت مشاكل مثل الفساد الأخلاقى وتفكك الأسرة تلاحقهم. سنقوم بتحليل شخصيات رواية *شيكاجو* ضمن فئتين: "الشخصيات المصرية المقيمة فى أمريكا" و"الشخصيات الأمريكية".

أولاً: الشخصيات المصرية المقيمة فى أمريكا

تنقسم هذه الشخصيات بدورها إلى فئتين: طلاب مصريون مبتعثون، وشخصيات مصرية تقيم فى أمريكا منذ سنوات طويلة. الفئة الأولى تتكوّن من عدد من الشباب المصريين الذين جاؤوا إلى مدينة شيكاجو لمواصلة تعليمهم. ورغم بذل جهود دؤوبة للحصول على المنحة الدراسية فى الولايات المتحدة، ينغمس هؤلاء فى بحر الأزمات الأخلاقية أو الوجودية أو الاجتماعية فورَ وصولهم إلى الولايات المتحدة؛ منهم:

شيماء محمدى و طارق حسيب

كلاهما من الطلاب المصريين فى قسم علم الأنسجة بجامعة إلينوى. وقد نشآ -كما نقرأ فى الاسترجاعات- فى بيئة تقليدية ودينية. وبعد فترة قصيرة من وجودهما فى الولايات المتحدة، يدمن طارق على مشاهدة الأفلام الإباحية، بينما تواجه شيماء أزمة الهوية والكثير من المشاكل الاجتماعية بسبب عدم معرفتها بالثقافة الغربية. بعد فترة، يقع الاثنان فى علاقة جنسية ينتج عنها حمل غير مرغوب فيه لشيماء وتدهور شديد فى التحصيل الدراسى لطارق، حتّى يصل الأمر الى حدّ طرده من الجامعة. فى النهاية،

تصاب شيماء بخيبة أمل من إقناع طارق بعقد القران فوراً فى الولايات المتحدة، فتقوم بإجهاض نفسها سراً.

ناجى عبدالصمد

ناجى طالب دراسات عليا فى جامعة إلينوى، وقد مُنع من مواصلة دراسته فى مصر بسبب نشاطاته السياسية، وفور وصوله إلى الولايات المتحدة، يسعى لإقامة علاقة جنسية مع بائعة هوى؛ ثمّ يدخل فى علاقة جنسية مع فتاة يهودية تُدعى "ويندى". فى هذه الأثناء، يدفعه سماع خبر الزيارة الوشيكة لـ"حسنى مبارك" (الرئيس المصرى السابق) إلى شيكاغو إلى التعاون مع "كرم دوس" (أحد الشخصيات الثانوية فى القصة) لجمع توقيعات من المصريين المقيمين فى أمريكا وتنظيم مسيرة احتجاجية أمام مقرّ خطاب الرئيس المصرى. لكن فى إحدى الليالى، عندما يعود ناجى إلى السكن، يفاجأ بوجود "صفوت شاكر" (رئيس المخابرات المصرية فى أمريكا) الذى يهدّد ناجى بإيذاء عائلته فى مصر، ويخبره بأنه يملك شريط فيديو لعلاقة ناجى الجنسية مع ويندى. هذا الخبر المفاجئ يثير شكوك ناجى تجاه ويندى، ويؤدى إلى قطع العلاقة بينهما. فى النهاية، بعد ليلة واحدة فقط من تظاهرات المعارضين للرئيس المصرى أمام مقرّ الخطاب، تقوم الشرطة الأمريكية بالتعاون مع رجال المخابرات المصرية باعتقال ناجى عبدالصمد بتهمة العمل ضد الأمن القومى والتخطيط لأعمال إرهابية على الأراضى الأمريكية. وتنتهى القصة بمشهد تعرّض ناجى للضرب باللكمات والركلات من قبل رجال الأمن الأمريكيين.

الفئة الثانية: الشخصيات المصرية المقيمة فى أمريكا

تتضمن الفئة الثانية عدداً من المصريين الذين دخلوا الأراضى الأمريكية منذ سنوات عديدة وأصبحوا الآن مواطنين فيها؛ منهم:

صلاح

غادر صلاح مصر، بسبب الأوضاع غير المستقرة، قبل ثلاثين سنة ولجأ إلى الولايات

المتحدة الأمريكية. ومع ذلک، خلال ثلاثين عاماً من العيش فى أمريكا، انفصل صلاح تماماً عن هويته المصرية وتقبّل الهوية الأمريكية بكل جوارحه: «المصريون هنا يطلقون على "عمدة شـــيكاجو". وأنا أبذل جهدى حتّى لا أفقـــد اللقب.» (نفس المصدر: ٥٦) لكنه، وعلى غرار شخصيات الفئة السابقة، فجأة يواجه أزمة هوية وينفصل عن المجتمع الأمريكـــى الذى يعتبره "الآخر"، ويحاول من خلال اســـتحضار ذكريات الماضى، أن يستعيد هويته المصرية. إنّ تحول شخصية صلاح غير متوقع إلى درجة أن الكاتب نفسه يشـــبّهه بأصحاب الكهف: «كأنه من أهل الكهف، نـــام ثلاثين عاماً ثمّ صحا وعاد إلى مدينته.» (نفس المصـــدر: ٣٣٨) وهكذا، ينفصل صلاح عن زوجته الأمريكية (كريس) ومن ثم يصل إلى نتيجة مفادها أن هجرته إلى أمريكا كانت أكبر خطأ فى حياته: «يثرثر بســـرعة ويكذب بحماس يدهشه... يكون هدفه أن يشتت ذهن من يحدّثه فلا يفكّر فى غرابة المكالمة... لا يجب أن يعرفوا إن وطأة الحنين قد ســـحقته، أنّه اكتشف بعد الستين أنه أخطأ لما ترک بلاده، أنه نادم حتّى الموت على الهجرة... .» (نفس المصدر) فى الختام، وبعد أن يفشل صلاح فى المشـــاركة فى المظاهرات الاحتجاجية ضد حسنى مبارک، يقدم على الانتحار.

رأفت ثابت

الشخصية التالية هى "رأفت ثابت"، أستاذ علم الأنسجة المصرى الآخر فى جامعة إلينوى. قبل حوالى أربعين عاماً، وبعد تطبيق السياسات الاشتراكية لجمال عبد الناصر فى مصر، التى أدت إلى تأميم مصانع الزجاج التابعة لوالده (محمود باشـــا ثابت)، غادر رأفت بلاده وهاجر إلـــى الولايات المتحدة الأمريكية. إنّـــه، بالإضافة إلى تخلّيه عن قيمه ومعتقداته ونماذجه الســـلوكية المصرية، يشنّ هجوماً بلا هوادة على جميع المظاهر والتجليات الشـــرقية وخاصة العربية-الإســـلامية. فهو من جهة يحتقر اللغة والثقافة العربيتـــين، ومن جهة أخرى يمنح اللغة والثقافـــة الأمريكيتين عظمة مبالغ فيها: «صار أمريكيا فى كل شىء... فهو لا يتحدّث العربية مطلقا، ويفكّر بالإنجيليزية وينطقها بلكنة أمريكية متقنـــة... بل إنّه يهز كتفيه ويحرّک يديه ويصدر أصواتا من فهمه أثناء الكلام

تمامـــاً كالأمريكيين... هذه الصورة التى يحبها لنفســـه، أن يكون أمريكيا حقيقيا كاملا، نقيا خالصا بلا شـــوائب!» (نفس المصدر: ٤٣) بل يتّخذ موقفاً عدائياً تجاه كلّ إنســـان أو ظاهرة شرقية (وخاصة المصرية): «بعد أحداث ١١ سبتمبر، كان رأفت يجاهر بآراء ضد العرب والمســـلمين قد يتحرج منها أكثر الأمريكيين تعصباً! كأن يقول مثلاً: – من حق الولايات المتحدة أن تمنع أى شـــخص عربى من دخول أراضيها حتى تتأكّد من أنه شـــخص متحضّر لا يعتبر القتل فرضاً دينياً... .» (نفس المصدر: ٤٥) ومع ذلك، عندما تقرّر ابنته (ســـارة) مغادرة المنزل والعيش بشكل مستقل مع صديقها (جيف)، يتعرّض رأفت ثابت لأزمة عصبية ونفســـية، إذ لا يســـتطيع التوفيق بين السلوك الغربى وقيمه الشـــرقية، فيسعى مرة أخرى إلى قمع معتقداته الراسخة: «أرجو أن تصدّق مرة واحدة وإلى الأبد هـــذه الحقيقة: أنا أمريكى، وقد ربّيت ابنتى على القيم الأمريكية... تخلصت إلى الأبد من التخلف الشرقى... لم أعد أربط شرف الإنسان بأعضائه التناسلية!» (نفس المصدر: ٧٧ و ٧٨) ومثل شـــخصية صلاح، يدرك رأفت فى النهاية أنه، رغم محاولاته اليائســـة لمحو هويته المحلية وذوبانه فى الهوية التابعة (الأمريكية) سيظل فى نظر مجتمع "المركز" (بمن فيهم زوجته وابنته) "الآخر المهمّش"، لتخاطبه ابنته «سارة» بهذه الطريقة: «كفاك أكاذيب... لقد تسبّبت فى شقائى... لا توجد شىء واحد حقيقى فى هذا البيت... أمى لا تحبّك... لم تحبّك قط... آن الأوان لكى تســـمع رأيى فيك: أنت شخص مزيف، ممثّل فاشـــل يؤدى دوراً ســـخيفاً لا يقنع أحداً. من أنت؟ هل أنت مصرى أم أمريكى؟ عشـــت حياتك وأنت تريد أن تكون أمريكيا وفشـــلت.» (نفس المصدر: ٣٩٣) تنتهى قصة رأفت ثابت بحضوره فى المستشفى إلى جانب جثة ابنته التى توفيت بسبب تعاطى جرعة زائدة من المخدرات.

كرم دوس

شـــخصية مصرية أخرى مقيمة فى الولايات المتحدة فى رواية "شيكاجو" هى "كرم دوس" الذى له دور محدود فى القصة وتُعتبر شـــخصية ثانوية فى الرواية. وعلى الرغم من أنّه قبطى مسيحى ومن أكبر الأطباء الجرّاحين ("القائد المحنك الماهر" حسب تعبير

الراوى) إلا أنّه يعانى مراراً من العنصرية الأمريكية: «منذ الأيام الأولى تكشّـفت له عدة حقائق: أولها أنّ كونه مسـيحياً لا يضيف إليه شـيئاً فى المجتمع الأمريكى، فهو بالنسبة للأمريكيين أولاً وأخيراً عربى ملون.» (نفس المصدر: ٢٤٢)

اللافت للنظر هو أن جميع هؤلاء الأشـخاص، بعد سـنوات طويلة من الإقامة فى الولايـات المتحدة والتكيف مـع القيم الغربية، يواجهون -علـى حين غرة- أزمات اجتماعية وثقافيـة مثل تفكك الأسـرة، وإدمان الأبناء، وأزمـة الهوية، والتعرض للإهانـات العنصرية؛ وإنّ جميعهم ضحايا الحضارة الغربية بشـكل أو بآخر، حيث قد أصيبوا بأزمات اجتماعية ووجودية نتيجة للتعـرف على القيم الغربية. يمكن ملاحظة هذا الاستشراق المعكوس بشكل خاص فى انعدام الخلفية التاريخية لدى الشخصيات المصرية، إذ أنّ نص الرواية لا يقدّم لنا أى معلومات عن ماضى هؤلاء الأشـخاص فى مصر، ولا يعرف القارئ عن ظروفهم الاجتماعية أو السياسية فى مصر إلا فى حالات قليلة جداً، بل تبدأ جميع الأزمات الاجتماعية والوجودية لهم منذ أن تطأ أقدامهم أرض الولايات المتحدة.

ثانياً: الشخصيات الأمريكية

كذلك، يمكن تقسيم الشخصيات الأمريكية فى رواية *شيكا*جو إلى فئتين: شخصيات ضحية للحضارة الغربية، وشخصيات داعمة للحضارة الغربية.

الفئة الأولى: الشخصيات الضحية للحضارة الغربية

الفئة الأولى، التى تكاد تكون جميعها من النسـاء، هـم -وفقاً للصورة الأحادية والثابتة والمنحازة للرواية عن الغرب- ضحايا لأنواع الأزمات فى المجتمع الأمريكى مثل العنف، والتحرّش، والإدمان على المخدرات، وتفكك الأسرة، والعنصرية، والتمييز، وغيرها. ومن أبرز هؤلاء هم:

كارول (صديقة جون غراهام): هى امرأة سـوداء البشرة. وعلى الرغم من قدراتها ومهاراتها العلمية والشـخصية، إلا أنه لا مكانة لها فـى المجتمع الأمريكى، إذ يمنعها المواطنون البيض، بسبب لون بشـرتها، حتى من الحصول على وظائف وضيعة ومهينة

مثل رعاية الكلاب المنزلية. (نفس المصـــدر: ٢٦٧) وعندما تكون مع "جون غراهام" تتجول فى الشـــارع، تتعرّض باستمرار للســـخرية والتهكم العنصرى من قبل مواطنى شيكاغو. (نفس المصدر: ١٨٨ – ١٩٣) وفى نهاية القصة، عندما يكتشف جون غراهام أن كارول اضطرت من بيع نفسها من أجل الحصول على فرصة عمل، ينفصل عنها.

دونـــا (امرأة تمارس الدعارة التقى بها ناجى عبدالصمد فى الأيام الأولى لوصوله إلى شيكاغو): هى امرأة فى الخمسين من عمرها، وبسبب هروب زوجها من المنزل وما تبع ذلک من فقر وعوز شديدين، أصبحت تعتاش من ممارسة البغاء: «أنت لا تعرف كم أحتاج إلى هذا المال... أنا أطعم ثلاثـــة أطفال من عملى هذا... أبوهم هرب مع امرأة تصغره بعشرين عاماً وتركنى معهم. ليســـت لى حقوق قانونية لأننا لم نكن متزوجين... على أن أدفع وحدى كلّ شـــىء... لا أحب أن أكون مومساً، لكننى ببساطة لم أجد عملا آخر... حاولت كثيراً ولم أجد.» (نفس المصدر: ٩٢)

كاثرين (الأخصائية النفســـية التى يراجعها رأفت ثابت لعلاج إدمان إبنته): تروى كاثرين لرأفت أنها كانت تملک سابقاً شركة كبيرة فى شيكاغو. وكان حجم العمل الكبير فى هذه الشـــركة يمنعها من تخصيص أى وقت لرعاية ابنها الوحيد "تيدى". ونتيجة لهذا الوضع، أدمن تيدى المخدرات بشـــدة، وتوفى بسبب الإفراط فى تعاطيها. (انظر: نفس المصدر: ٣٤٩)

ميشيل (زوجة رأفت ثابت): من خلال الحوار بين ميشيل ورأفت ثابت، ندرک أنها كانت تتصرف دوماً بعنصرية تجاه رأفت، وكانت تلومه بسبب أصوله العربية. (انظر: نفس المصدر: ١٤١ و١٤٢)

كريس (زوجة صلاح): بعد تغيير الحالة النفسية لصلاح، تنفصل كريس عنه بسرعة وتلجأ إلى اســـتخدام جهاز جنسى إلكترونى لإشباع حاجاته الجنسية. (نفس المصدر: ٣٢٦ – ٣٣٢)

الفئة الثانية: الشخصيات الداعمة للحضارة الغربية

المجموعة الثانية من الشـــخصيات الأمريكية، وجميعهـــم رجال، هم إما أمريكيون

متعصبون يوجّهون هجماتهم العنصرية ضد غير الأمريكيين وغير البيض، أو أشـــخاص منحلون أخلاقياً يدفعون الآخرين (غالبًا النساء) إلى سلوكيات غير أخلاقية وإباحية:

تشـــاك (الطبيب المســـاعد لكرم دوس): هو أمريكى متعصـــب وعنصرى؛ وعلى الرغم من كونه مســـاعد كرم دوس فى غرفة العمليات، إلا أنه يتصّرف معه بشكل مهين وعنصرى. وفى أحد أجزاء القصة، يتســـلل الراوى إلى ذهن تشاك ويقول على لسانه مخاطباً كرم دوس: «صحيح أنا أعمل تحت رئاســـتك... أنا مجرد مســـاعد وأنت جراح كبير... لكن إياك أن تنســـى أننى أمريكى أبيض وصاحب هذه البلاد، أما أنت فمجرد عربى ملوّن جاء مـــن إفريقيا فعلّمناه ودرّبناه وصنعنا منه شـــخصاً متحضَراً.» (نفس المصدر: ٢٤٧)

جورج مايكل (أحد أساتذة قسم هيستولوجيا بجامعة إلينوى): هو عنصرى متعصب للغايـــة يعتقد أن جميع المصائب والتحديات التى تواجـــه الولايات المتحدة هى نتيجة دخول المسلمين إليها. ويظهر سلوك مايكل العنصرى بشكل خاص فى تعامله مع ناجى عبدالصمد (انظر: المصدر نفسه: ٢٨) وكارول. (انظر: المصدر نفسه: ١٨٩ و١٩٠)

زمـــلاء ناجى عبدالصمد فى الصف: الذين يجعلونه هدفاً للســـخرية والاســـتهزاء والشـــعارات العنصرية، خاصة بعـــد تعرّفه على ويندى: «كان أجرأهم شـــاب نحيل وطويل، شعره أحمر وأسنانه العلوية بارزة قليلاً، يضع طاقية سوداء صغيرة على رأسه... وكلما رآنى يصيح بصوت عال: – الســـلام عليكم؛ ثمّ يســـتغرقون جميعا فى الضحك. ظللـــت أتجاهلهم، حتى فوجئت بـــه عقب انتهاء الدرس يوم الجمعة يســـتوقفنى بيده وحوله أصدقاؤه، ثمّ يســـألنى باستهزاء: – من أين جئت؟ – أنا مصرى – لماذا تدرس الهيســـتولوجى؟ هل تظنه مفيداً فى تربية الجمال؟ افجروا جميعا ضاحكين... .» (نفس المصدر: ٢٨٣ و ٢٨٤)

فرناندو (موظف فى شـــركة إعلانات): وهو مثلى الجنس ومدمن على الكوكايين، يجبر كارول على التعرى أمام الكاميرا للمشاركة فى إعلانات الملابس النسائية. (نفس المصدر: ٣١٥ – ٣٢٠)

جيف (حبيب ســـارة): وهو نفسه مدمن على مخدر الكراك ويدفع سارة (ابنة رأفت

ثابت) إلى هذا الطريق. وفى النهاية، تموت سارة بسبب الإفراط فى تعاطى المخدرات. (نفس المصدر: ٢٢٤ و ٢٢٥)

رئيس شركة الإعلانات: الذى يشترط توقيع عقد جديد مع كارول بإقامة علاقات جنسية غير مشروعة معها. (نفس المصدر: ٤٤٥)

كما هو واضح، فإن الشخصيات الأمريكية فى *شيكاجو* جميعها تقريباً شخصيات تعانى من الأزمات وغارقة فى المشكلات النفسية والروحية. فى الواقع، إنّ الشخصيات الأمريكية فى رواية *شيكاجو* إما ضحايا للقيم والمعايير الاجتماعية الأمريكية أو مؤيدون لقيم غير إنسانية مثل العنصرية، والتعصب، والتحرّش، والاستهلاكية. وقد قام الكاتب بتمثيل صورة مشوّهة ومتحيزة عن الشخصيات الأمريكية.

النتيجة

رواية *شيكاغو* للكاتب الصرى علاء الأسوانى تُعد مثالاً بارزاً لما أطلق بعض المفكرين (مثل صادق جلال العظم) عليه "الاستشراق المعكوس" الذى يعنى إنتاج آخر غربى من خلال عملية التمثيلية التى تتجلى فى اختزال الحضارة الغربية فى مفاهيم ثابتة وأيديولوجية ومتحيزة. وقد مارست رواية *شيكاجو* الاستشراق المعكوس فى شكله الصارخ من خلال وضع المجتمع الأمريكى، بوصفه موضوعاً، فى موقع الآخر غير المتحضّر، وذلك عبر آليتى «القفزات السردية» و«التمثيل المشوّه للشخصيات الأمريكية». إنّ آلية "القفزات السردية" التى تتمثّل فى عناصر سردية مثل العنوان، والغلاف، والبداية، والزمان والمكان، يتمّ توظيفها عبر حركة متعرجة بين الماضى والحاضر. بمعنى أن هذه العناصر السردية غالباً ما تدمج الحضارة الغربية اليوم (وخاصة المجتمع الأمريكى فى بدايات القرن الحادى والعشرين) مع الحقب التاريخية المظلمة والعنيفة للولايات المتحدة، لتختزل الحضارة الغربية فى طبائع ثابتة وخصائص جوهرية. أما آلية "التمثيل المشوّه للشخصيات الأمريكية" فتتجلى فى تقديم الشخصيات تقديماً منحازاً يهدف إلى تشويه صورة الآخر الغربى، حيث إنّ جميع شخصيات الرواية يتخبّطون، فى ظلّ سيطرة القيم الغربية، فى مستنقع من المشاكل والأزمات الأخلاقية

والاجتماعية: فالشخصيات غير الأمريكية (المصرية) تنجرف نحو الانحرافات الأخلاقية والجنسية فور دخولها إلى الولايات المتحدة؛ والشخصيات الأمريكية، فهى إما ضحايا النظـــام الرأسمالى والقيم الغربية، حيث يقعون فى أزمات اجتماعية وأخلاقية بســـبب ســـعيهم لتأمين احتياجاتهم اليومية، أو هم عنصريون متطرفون يتخذون مواقف عنيفة ضد غير البيض وغير الأمريكيين.

المصادر والمراجع

العربية

الأسوانى، علاء. (٢٠٠٧). شيكاجو. ط ١١. القاهرة: دارالشروق.

جلال العظم، صادق. (١٩٨١). الاستشـــراق والاستشراق معكوســـاً. بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر.

جودة السحار، عبدالحميد. (١٩٩١). جسر الشيطان. القاهرة: دار مصر للطباعة.

زيتونى، لطيف. (٢٠٠٢). معجم مصطلحات نقد الرواية. ط ١. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

ســـالم محمد الأمين الطلبة، محمد. (٢٠٠٨). مســـتويات اللغة فى السرد العربى المعاصر (دراسة نظرية تطبيقية فى سيمانطيقا السرد). ط ١. بيروت: مؤسسة الإنتشار العربى.

سعيد، ادوارد. (٢٠٠٦). الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة محمد عنانى. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

فرج، ريتا. (٢٠١٨). «النسوية ما بعد الكولونيالية: تفكيک الخطاب الاستشراقى حول نساء الهامش». مجلة فيصل الالكترونية. العنوان:

https://www.alfaisalmag.com/?p=9064https://www.alfaisalmag.com/?p=9064

القاضى، محمد والآخرون. (٢٠١٠). معجم السرديات. ط ١. مجموعة الدول: الرابطة الدولية للناشرين المستقلين.

محمود ســـلامى، أحمد (٢٠١٦) «الاستشراق المعكوس فى فكر حسن حنفى». المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلد ٩، العدد.

محمود، حســـن محمود. (٢٠٢٣). «ثنائية الأنا والآخر فى رواية شـــيكاجو». مجلة كلية اللغة العربية بجامعة أسيوط. العدد ٤٢. الجزء الثانى. صص ١٠٢٨ – ١٠٥٠.

الفارسية

امير دهناوى، فريده وديگران. (١٣٩٤ش). «سيماى ديگرى در رمان ثريا در اغما اثر اسماعيل فصيح

و رمان شـــیکاگو اثر علاء الاســـوانی». مجله ادبیات تطبیقی. سال هفتم. شماره ۱۲. صص ۱ – ٢٤.
برناکی، فاطمه وعلی ســـلامی. (١٤٠٢ش). «استعمار نوین و سیاســـت دیگرستیزی: هویت دشمن دوســـت نما در رمانهای جمهوریت، حقیقتی دروغین و شـــیکاگو اثر علا الاسوانی». مجله پژوهش ادبیات معاصر جهان. دوره ۲۸. شماره ۱. صص ٤٧ – ٦٨.
کاظم زاده، نسرین و دیگران. (١٤٠٠ش). «سازگاری فرهنگی مهاجران در رمان شیکاگو، اثر علاء الأسوانی؛ بر اســـاس نظریه فرهنگ‌پذیری جان بری ». مجله ادب عربی. سال ۱۳. شماره ٤. صص ۱۵۲ – ۱۷۲.
میرصادقی، جمال و میمنت میرصادقی. (۱۳۷۷ش). واژه‌نامه هنر داستان‌نویسی. تهران: کتاب مهناز.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی